اخترنا لك .

حضارة الإسلام وأثرها
فى الحضارة الحديثة

بقلم الدكتور محمد عبد الله دراز

ليس بالمرء حاجة إلى أن يكون مؤرخاً واسع الاطلاع ملماً بدقائق الحوادث ، لكى يعرف أن نمو الإسلام وانتشاره ، ثم ثباته واستقراره حيثما حل ونزل ، كان حدثاً فذاً ، منقطع النظير فى تاريخ البشرية ، بل كان معجزة من معجزاته .

وليس بالمرء حاجة إلى أن يكون فيلسوفاً عميق الفكرة بعيد المقدمات ، لكى يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة أن الإسلام لابد أن يكون قد حوى من عناصر الحق والخير والجمال كل ما تتطلبه الفطر السليمة على اختلاف مشاربها وأساليبها فى الحياة وأن الحضارات التى نشأت فى ظله فاحتضنها وصانها ، أو التى اقتبسها مما حوله فنماها وأضاف إليها ، ووسمها بطابعه الخاص ، كانت لابد محققة لكل ما تطمح إليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد .

* * *

بدأ الإسلام شعاعة من النور السماوى ، هبطت على قلب رجل فرد ، فى عالم كله ظلمات بعضها فوق بعض : ضلالات وأوهام فى العقائد ، انحراف وانحدار فى الأخلاق والعوائد ، فوضى فى المعاملات ، تفكك فى الأسره ، اختلال فى التوازن بين طبقات المجتمع ، السلطان كله للقوة الباطشة ، أو للشهوة الجامحة ، ولا سلطان للقانون . . .

وتألبت كل عناصر الظلام ، فى جزيرة العرب ، ومن حول جزيرة العرب ، لتطفىء هذه الشعاعة الأولى من النور . . . ولكن هذه الشعاعة لزمت مكانها (مكة) وثبتت فى قوة وإصرار عشر سنين كاملة ، أمام هذه الزوابع والأعاصير . . . ثم أذن الله لها (بفضل الهجرة إلى المدينة فى سنة ٦٢٢ الميلادية) أن تشتد وتمتد ، وأن تنتشر وتستبحر ، فأخذت تزحف بدورها على جيوش الظلام لتبددها ، فلم تمض عشر سنوات بعد الهجرة حتى غمرت بنورها جزيرة العرب كلها . . .

ولم يكن هناك سوى (بنى غسان) الذين أضطروا إلى الدخول فى الإسلام . أما ماعداهم من المسيحين واليهود وغيرهم ،فقد كانوا يتبعون الدين الذى يريدون أتباعه .

وبالرغم من أن الأشتراك فى الحروب كان مقتصراً على المسلمين فقط إلا أن الخليفة كان يسمح لمن يراه من غير المسلمين كفئا ، بالأشتراك فى هذا الشرف العظيم .

ومن الأسباب التى حببت الاسلام إلى النفوس وجعلت الناس يهرعون إليه ويميلون إلى تعاليمه ، أنه لم يحدث فجوة فى الثقافة القائمة فى ذلك الوقت ، فالحضارة التى سادت أيام بنى أمية لم تكن إلا امتداداً لحضارة الاغريق ، وكذلك الفن الذى انتشر فى ذلك العصر لم يكن سوى الفن الشامى الأغريقى الذى قام منذ آماد بعيدة ، كما أن الفنانين الذين ظهروا فى تلك الحقبة كانوا هم الفنانين المسيحين الذين تعلموا وتثقفوا بالثقافة البيزنطية ، مع بعض المحاولات التى تضفى على كل ذلك مسحة اسلامية حتى لا يكون هناك ما يخالف تعاليم الإسلام .

ولم يحاول المسلمون أن يأخذوا الأمر عنوة وقسرا ، بل ساروا فى رويه وحكمة إذ أنهم تركوا أكثر الوظائف المدنية فى البلاد التى سيطروا عليها ، فى أيدى أهلها الذين يتكلمون اللغة اليونانية ، كما كانت حسابات الدولة نفسها تدون بنفس اللغة التى يتكلمها أهل البلاد . وقد ظلت هذه الحال ما يقرب من قرن من الزمان . وعلى هذا نستطيع أن نقول بأن الشقة بين الاسلام والمسيحية لم تكن بعيدة ولم يكن الأختلاف بينهما كبيراً .

فلقد تأثر محمد فى تعاليمه بالديانتين اليهودية والمسيحية ، بل أن الكثيرين من ذوى الفكر من معاصريه قالوا إن تعاليم محمد ليست إلا آراء متطرفة مكملة لما جاءت به المسيحية ، وهذا السبب بالأضافة إلى البساطة والتقشف التى كان يضفيها الاسلام على الحياة ، هو الذى حبب الإسلام إلى المسيحيين الساميين ، فدخل الكثيرون منهم فى دين الله أفواجاً .

وأما الذين لم يدخلوا الإسلام فقد أندمجوا مع العرب المسلمين الآتين من الصحراء وتزوج المسلمون من المسيحيات وأنجبوا منهن أطفالا مسلمين وذلك لأن العقيدة الإسلامية لم تكن عسيرة على أفهام المسيحيين .

وبهذا الإندماج وهذا التزاوج زاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

ثم أخذ أثر الاغريق فى هذه البلاد فى الزوال ، وخاصة بعد انتقال الخليفة من

دمشق إلى بغداد التى كانت فى ذلك الوقت منغمسة فى الخضم الفارسى ، وقد أقبل أهل العراق على الإسلام وتقبلوه فى يسر وسهوله ، وكذلك فعل الفرس فتركوا مسيحيتهم فى سرعة مدهشة ، وصارت لهم فى الإسلام صورة مميزة لايزالون يحتفظون بها إلى الآن .

وقد أخذ الخلفاء العباسيون الذين أقاموا ببغداد ثقافتهم من الملوك الساسانيين ، وبذلك أمتازت الحضارة العربية بأنها مزاج من الحضارات الأغريقية والرومانية والفارسية ، ولم يحدث فى تاريخ الثقافة الأسلامية أن شعر أحد بأيه قوة إلا بعد أن غزا الأتراك والمغول بلاد الإسلام وأصبح لهم النفوذ والسيطرة .

كما علينا أن نذكر أن فلسطين ظلت على مسيحيتها حتى دخلها صلاح الدين ، كما أن مصر العليا استمرت مسيحية حتى العصر الحديث ، ولبنان لا يزال إلى يومنا هذا بلدا مسيحيا وسط البلاد الإسلامية التى تحيط به من كل جانب .

والذى يجب أن يعرفه الجميع هو أن الحروب الصليبية هى التى اضطرت المسلمين إلى أن يصبحوا متعصبين لدينهم يبشرون به ويطلبون من غيرهم أعتناقه ، وإلا كان جزاؤهم الموت ، ولم يحدث هذا إلى فى العصور المتاخرة .

* * *

وقصارى القول أنه على الرغم من محاولتنا الاقلال من أهمية النتائج الثورية التى صاحبت ظهور الإسلام ، وكذلك على الرغم من محاولتنا تلمس الأسباب التى كان لها فى الماضى أثر فى نجاحه السياسى ، هذا النجاح المفاجىء المذهل ، فلا يمكن أن يفقد الإسلام بحال من الأحوال هتافه الغريب المعجز ، ولا المعانى التى تنطوى عليها روحه من سماحة وجمال باهر ، كما أنه ليس فى مقدورنا أن نهمل التأثر العظيم البالغ للبسالة والحكمة والإخلاص التى تركها محمد فى نفوس أتباعه فامتلأت بها قلوبهم من بعده .

والواقع أنه يحق للمسلم أن يعتز بكل هذه الميزات عندما يقرأ تاريخ هذه الحقب، ولا سيما عندما يدرك أن هذا الدين الذى يعتنقه هو الدين الذى أرتضاه له ربه وأن أول دعامة من دعائمه إعترافه أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .